

حُسْنُ الْخَاتِمَةِ أَسْبَابُهَا وَعَلَامَاتُهَا

عناصر الخطبة

مقدمة معنى حسن الخاتمة

أسباب حسن الخاتمة

نماذج لحسن الخاتمة

علامات حسن الخاتمة

التفصيل

مقدمة: ونحن مقبلون على انقضاء عام هجري، يحمل صحائف أعمالنا، نختم أيامه وشهوره، فلا نفتح إلى يوم القيامة. فيا ترى هل تذكرنا ختام العمر، وبم يختم للإنسان.

فالسعي لحسن الخاتمة غاية الصالحين وهمّة العباد المتقين ورجاء الأبرار الخائفين، فمن وفقه الله لحسن الخاتمة فقد سعد سعادة لا يشقى بعدها أبداً، ولا كربَ عليه بعد ذلك التوفيق، ومن خُتِمَ له بسوء خاتمة فقد خسرَ في دنياه وأخراه. والصالحون تعظم عنايتهم بالأعمال الصالحة السوابق للخاتمة، كما أنهم يجتهدون في طلب التوفيق للخاتمة الحسنة، فيحسنون الأعمال، ويحسنون الرجاء والظن بالله تعالى، ويسئون الظن بأنفسهم، كما قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} وَمَنْ صَدَقَ اللَّهُ فِي نِيَّتِهِ وَعَمِلَ بِسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَاتَّبَعَ هَدْيَ أَصْحَابِهِ فَقَدْ جَرَتْ سُنَّةُ اللَّهِ تَعَالَى أَنْ يَخْتَمَ لَهُ بِخَيْرٍ، وَأَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ

عواقب أمورهِ إلى خَيْرٍ، قَالَ تَعَالَى: { إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا }، وَقَالَ تَعَالَى: { وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا }، وَقَالَ تَعَالَى: { لَوْ مَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ }^(١).
معنى حسن الخاتمة:

حسن الخاتمة هو: أن يوفق العبد قبل موته للبعد عما يغضب الرب سبحانه، والتوبة من الذنوب والمعاصي، والإقبال على الطاعات وأعمال الخير، ثم يكون موته بعد ذلك على هذه الحال الحسنة.
وقد دلَّ كتابُ الله تعالى على أهمية حسن الخاتمة والسعي في تحقيق ذلك، في آيات، منها قوله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ } [آل عمران: ١٠٢]، وقوله جل وعلا: { وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ } [الحجر: ٩٩]، وهي وصية الأنبياء لذرياتهم {وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} [البقرة: ١٣٢]
ويدلُّ على ذلك حديث أنس بن مالك -رضي الله عنه- أنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم-: ((إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا اسْتَعْمَلَهُ)) فَقِيلَ: كَيْفَ يَسْتَعْمَلُهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: ((يُوقِّعُهُ لِعَمَلٍ صَالِحٍ قَبْلَ الْمَوْتِ))^(٢)

وإذا كثرت الفتن وانتشرت، فينبغي للمسلم أن يكون أشد خوفاً على نفسه ودينه، لأن القلوب في الفتن تتقلب بين عشية وضحاها، فعن أبي هريرة أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال:

(١) الاستعداد للموت (ص: ٢٠٣)

(٢) رواه الترمذي (٢١٤٢) وصححه الألباني في صحيح الجامع (١/ ١١٧)

((بَادِرُوا بِأَعْمَالٍ فِتْنًا كَقَطْعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا، أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا، يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا))^(٣)

وقال -صلى الله عليه وسلم- ((إِنَّ أُمَّتَكُمْ هَذِهِ جُعِلَ عَافِيَتُهَا فِي أَوْلِيَّهَا، وَسَيُصِيبُ آخِرَهَا بَلَاءٌ، وَأُمُورٌ تُنْكَرُونَهَا، وَتَجِيءُ فِتْنَةٌ فَيُرْفَقُ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ، وَتَجِيءُ الْفِتْنَةُ فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ: هَذِهِ مُهْلِكَتِي، ثُمَّ تَنْكَشِفُ وَتَجِيءُ الْفِتْنَةُ، فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ: هَذِهِ هَذِهِ، فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزْخَرَ عَنِ النَّارِ، وَيُدْخَلَ الْجَنَّةَ، فَلْتَأْتِهِ مَبِيتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ))^(٤)

أسباب حسن الخاتمة:

١- تحقيق التوحيد لله جلّ وعلا:

إن إقامة التوحيد في قلب المسلم زرغ يجني ثماره في حياته وعند موته وفي قبره ويوم حشره ويكون سبباً في دخول جنات ربه وتحصيل رضوانه. قال تعالى { وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } [التغابن: ١١] وقال تعالى { يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ }^(٥)

الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ } [إبراهيم: ٢٧] والقول الثابت: هو قول: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. ^(٥)

قال ابن القيم: وأثبت القول كلمة التوحيد ولوازيمها، فهي أعظم ما يثبت الله بها عبده في الدنيا والآخرة. ^(٦)

^(٣) رواه مسلم (١١٨)

^(٤) رواه مسلم (١٨٤٤) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما

^(٥) تفسير البغوي (٤/ ٣٤٩)

قَالَ قَتَادَةُ: أَمَّا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَيُنَبِّئُهُمْ بِالْخَيْرِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، {وَفِي الْآخِرَةِ} فِي الْقَبْرِ. (٧)

قال الطبري -رحمه الله- : أَي يُنَبِّئُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَذَلِكَ تَنْبِيئُهُ إِيَّاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا بِالْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ -صلى الله عليه وسلم-، وَفِي الْآخِرَةِ بِمِثْلِ الَّذِي نَبَّئَهُمْ بِهِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَذَلِكَ فِي قُبُورِهِمْ حِينَ يُسْأَلُونَ عَنِ الَّذِي هُمْ عَلَيْهِ مِنَ التَّوْحِيدِ وَالْإِيمَانِ بِرَسُولِهِ -صلى الله عليه وسلم-. (٨)

وفي حديث عتبان بن مالك -رضي الله عنه- قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم-: " فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ ". (٩)

قال ابن القيم -رحمه الله- : وَأَهْلُ السُّنَّةِ إِنْ قَعَدَتْ بِهِمْ أَعْمَالُهُمْ قَامَتْ بِهِمْ عَقَائِدُهُمْ، وَأَهْلُ الْبِدْعِ إِذَا قَامَتْ بِهِمْ أَعْمَالُهُمْ قَعَدَتْ بِهِمْ عَقَائِدُهُمْ. (١٠)

٢- الاستقامة على الطاعة:

وَالِاسْتِقَامَةُ: هِيَ سُلُوكُ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، وَهُوَ الدِّينُ الْقَيِّمُ مِنْ غَيْرِ تَعْرِيجٍ عَنْهُ يُمْنَةً وَلَا يُسْرَةً، وَيَشْمَلُ ذَلِكَ فِعْلَ الطَّاعَاتِ كُلِّهَا، الظَّاهِرَةَ وَالْبَاطِنَةَ، وَتَرَكَ الْمَنْهَيَّاتِ كُلِّهَا كَذَلِكَ. (١١)

(٦) إعلام الموقعين (١/ ١٣٦)

(٧) تفسير ابن كثير (٤/ ٥٠٢)

(٨) تفسير الطبري (١٣/ ٦٦٧)

(٩) رواه البخاري (٤٢٥) ومسلم (٣٣)

(١٠) إعلام الموقعين (٣/ ٢٥٥)

فلاستقامة أعظم كرامة، وسبب عظيم في حُسن الخاتمة، قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ} [فصلت: ٣٠]

وقال سبحانه {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} [الأحقاف: ١٣]

وعن سفيان بن عبد الله الثقفي -رضي الله عنه- ، قال: قلت: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قُلْ لِي فِي الْإِسْلَامِ قَوْلًا لَا أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا بَعْدَكَ. قَالَ: " قُلْ: آمَنْتُ بِاللَّهِ، ثُمَّ اسْتَقِمَّ " (١٢)

قال ابن القيم: فالعبد لا يستغني عن تثبيت الله له طرفة عينٍ فإن لم يُثبتهُ وإلا زالت سماء إيمانه وأرضيه عن مكانهما، وقد قال تعالى لأكرم خلقه عليه عبده ورسوله: {وَلَوْلَا أَنْ تَبَتَّكَ لَفَدَّ كِدْتَ تَرَكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا}. . . فالخلق كلهم قسمان: موفق بالتثبيت، ومخذول بترك التثبيت، ومادة التثبيت أصله ومنشؤه من القول الثابت وفعل ما أمر به العبد، فبهما يُثبت الله عبده، فكل من كان أثبت قولًا وأحسن فعلًا كان أعظم تنبيته، قال تعالى: {وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَنبِيهًا} فأثبت الناس قلبًا أثبتهم قولًا، والقول الثابت هو القول الحق والصدق. (١٣)

(١١) جامع العلوم والحكم (١/ ٥١٠)

(١٢) رواه مسلم (٣٨)

(١٣) إعلام الموقعين (١/ ١٣٦)

٣- اتباع النبي -صلى الله عليه وسلم- في كل أحواله وأقواله:

قال تعالى { وَإِنْ تَطِيعُوهُ تَهْتَدُوا } [النور: ٥٤] وقال تعالى { فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيُّ الْأُمِّيُّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبَعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ } [الأعراف: ١٥٨] قال الزُّهْرِيُّ -رحمه الله- :
كَانَ عُلَمَاؤُنَا يَقُولُونَ: الِاعْتِصَامُ بِالسُّنَّةِ هُوَ النِّجَاةُ "

وَقَالَ مَالِكٌ " السُّنَّةُ سَفِينَةُ نُوحٍ مَنْ رَكِبَهَا نَجَا وَمَنْ تَخَلَّفَ عَنْهَا غَرِقَ "

قال ابن تيمية تعليقا: وَذَلِكَ أَنَّ السُّنَّةَ وَالشَّرِيعَةَ وَالْمِنْهَاجَ: هُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ الَّذِي يُوصِلُ الْعِبَادَ إِلَى اللَّهِ. وَالرَّسُولُ: هُوَ الدَّلِيلُ الْهَادِي الْخَرِيْتُ فِي هَذَا الصِّرَاطِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: {إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا} {وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا}. وَقَالَ تَعَالَى: {وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}. (١٤)

وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- : لَسْتُ تَارِكًا شَيْئًا، كَانَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَعْمَلُ بِهِ إِلَّا عَمِلْتُ بِهِ، فَإِنِّي أَخْشَى أَنْ تَرَكَتُ شَيْئًا مِنْ أَمْرِهِ أَنْ أَرْيَغَ.

قال الإمام ابن بطة تعليقا على كلام الصديق: هَذَا يَا إِخْوَانِي الصِّدِّيقُ الْأَكْبَرُ يَتَخَوَّفُ عَلَى نَفْسِهِ الزَّيْغَ إِنْ هُوَ خَالَفَ شَيْئًا مِنْ أَمْرِ نَبِيِّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فَمَاذَا عَسَى أَنْ يَكُونَ مِنْ زَمَانٍ أَضْحَى أَهْلُهُ يَسْتَهْزِئُونَ بِنَبِيِّهِمْ وَيَأْوَمِرُهُ، وَيَنْبَاهُونَ بِمُخَالَفَتِهِ، وَيَسْخَرُونَ بِسُنَّتِهِ؟ نَسَأَلُ اللَّهَ عِصْمَةَ مِنَ الزَّلَلِ وَنَجَاةً مِنْ سُوءِ الْعَمَلِ. (١٥)

(١٤) مجموع الفتاوى (٥٧ / ٤)

(١٥) الإبانة الكبرى لابن بطة (١ / ٢٤٦)

٤- الجمع بين الخوف والرجاء والمحبة:

قال ابن القيم -رحمه الله- : الْقَلْبُ فِي سَيْرِهِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِمَنْزِلَةِ الطَّائِرِ، فَالْمَحَبَّةُ رَأْسُهُ، وَالْخَوْفُ وَالرَّجَاءُ جَنَاحَاهُ، فَمَتَى سَلِمَ الرَّأْسُ وَالْجَنَاحَانِ فَالطَّائِرُ جَيِّدٌ الطَّيْرَانِ، وَمَتَى قُطِعَ الرَّأْسُ مَاتَ الطَّائِرُ، وَمَتَى قُفِدَ الْجَنَاحَانِ فَهُوَ عُرْضَةٌ لِكُلِّ صَائِدٍ وَكَاسِرٍ. . . فَالْمَحَبَّةُ هِيَ الْمَرْكَبُ. وَالرَّجَاءُ حَادٍ، وَالْخَوْفُ سَاتِقٌ، وَاللَّهُ الْمُوصِلُ بِمَنَّهُ وَكَرَمِهِ. (١٦)

قال ابن القيم: وأما خوف أوليائه من مكره فحق فإنهم يخافون أن يخذلهم بذنوبهم وخطاياهم فيصيرون إلى الشقاء فخوفهم من ذنوبهم ورجاؤهم لرحمته. (١٧)

فينبغي للعبد أن يعلم أن الله عز وجل لا يظلم مثقال ذرة، ولا يظلم الناس شيئاً، وهو عند ظن عبده به.

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْأَنْصَارِيِّ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم-، قَبْلَ مَوْتِهِ بِثَلَاثَةِ أَيَّامٍ، يَقُولُ: ((لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ)) (١٨)

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رضي الله عنه- ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ -صلى الله عليه وسلم-: " يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَأٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَأٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشَيْءٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا

(١٦) مدارج السالكين (١/ ٥١٣)

(١٧) الفوائد لابن القيم (ص: ١٦٤)

(١٨) رواه مسلم (٢٨٧٧)

تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمَشِي أَتَيْتُهُ هَرَوَلَةً " . (١٩)

* إذا فالعبد لابد له من إحسان الظن بربه جل وعلا، ولا يكون محسناً للظن بربه إلا إذا أحسن العمل واجتهد في طاعة ربه سبحانه، وإلا فهي أمانى كاذبة.

قال ابن القيم: وَكَثِيرٌ مِنَ الْجُهَالِ اعْتَمَدُوا عَلَى رَحْمَةِ اللَّهِ وَعَفْوِهِ وَكَرَمِهِ، وَضَيَّعُوا أَمْرَهُ وَنَهْيَهُ، وَنَسُوا أَنَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ، وَأَنَّهُ لَا يُرَدُّ بِأَسْئُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ، وَمَنْ اعْتَمَدَ عَلَى الْعَفْوِ مَعَ الْبَاطِلِ وَالصِّرَارِ عَلَى الذَّنْبِ فَهُوَ كَالْمُعَانِدِ.

قَالَ مَعْرُوفٌ: رَجَاؤُكَ لِرَحْمَةِ مَنْ لَا تُطِيعُهُ مِنَ الْخِذْلَانِ وَالْحُمُقِ.

وَسَأَلَ رَجُلٌ الْحَسَنَ فَقَالَ: يَا أَبَا سَعِيدٍ كَيْفَ نَصْنَعُ بِمُجَالَسَةِ أَقْوَامٍ يُخَوِّفُونَا حَتَّى تَكَادَ قُلُوبُنَا تَطِيرُ؟ فَقَالَ: وَاللَّهِ لَأَنْ تَصْحَبَ أَقْوَامًا يُخَوِّفُونَكَ حَتَّى تُدْرِكَ أَمْنًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَصْحَبَ أَقْوَامًا يُؤْمِنُونَكَ حَتَّى تَلْحَقَكَ الْمَخَاوِفُ. (٢٠)

٥ - الدعاء:

فالدعاء سبب عظيم لحسن الخاتمة، إذا انكسر العبد لربه جل وعلا، وأظهر افتقاره، وتبرأ من حوله وقوته، مهما كان حاله في عبادة ربه، فهذا الخليل إبراهيم عليه السلام يدعو ربه أن يلحقه بالصالحين قال تعالى عنه: رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالْحَقِّنِي بِالصَّالِحِينَ { [الشعراء: ٨٣] } ولقد كان ذلك مطلب يوسف عليه السلام حين دعا ربه عند انقضاء أجله وذهاب عمره أن يميته على الإسلام

(١٩) رواه البخاري (٧٤٠٥)

(٢٠) الداء والدواء (ص: ٢٨)

ويثبت عليه فقال الله عنه {رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ

وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ} [يوسف: ١٠١]

وكان من دعاء الصالحين أن يتوفاهم الله حين انقضاء آجالهم وهم متمسكون بالطاعات ملازمون لها،

ومجانبون للمعاصي مفارقون لها، مصاحبون للأبرار معدودون في زميرتهم، مجافون للفجار حائدون

عن صحبتهم وفي ذلك يقول عنهم المولى عز وجل: {رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا

بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ} [آل عمران: ١٩٣]

قال ابن القيم: إنَّ العبدَ إذا علمَ أنَّ اللهَ سبحانه وتعالى هو مُقلبُ القلوب، وأنه {يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ} وأنه

تعالى سبحانه {كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ}، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، وأنه يهدى من يشاء ويضل من يشاء،

ويرفع من يشاء ويخفض من يشاء، فما يُؤمِّنه أن يُقلِّبَ اللهُ قلبه، ويحول بينه وبينه ويُرِيغَهُ بعد إقامته؟ وقد

أثنى الله على عباده المؤمنين بقولهم: {رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ

الْوَهَّابُ} [آل عمران: ٨]، فلولا خوف الإزاحة لما سأله أن لا يزيغ قلوبهم. (٢١)

* وهذا خير خلق الله محمد -صلى الله عليه وسلم- كان كثيراً ما يدعو بالثبات على دين الله -

عز وجل - فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما،: أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله

عليه وسلم-، يَقُولُ: ((إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ، كَقَلْبِ وَاحِدٍ،

(٢١) طريق الهجرتين (ص: ٢٨٨)

يُصْرَفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ)) ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم-: ((اللَّهُمَّ مُصْرَفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ))^(٢٢)

وعن شهر بن حوشب، قال: قلتُ لأمِّ سلمة: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ مَا كَانَ أَكْثَرَ دُعَاءِ رَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- إِذَا كَانَ عِنْدَكَ؟ قَالَتْ: كَانَ أَكْثَرَ دُعَائِهِ: يَا مُقَلَّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ " قَالَتْ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا لِأَكْثَرِ دُعَائِكَ يَا مُقَلَّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ؟ قَالَ: ((يَا أُمَّ سَلْمَةَ إِنَّهُ لَيْسَ آدَمِيٌّ لِيَا وَقَلْبُهُ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ، فَمَنْ شَاءَ أَقَامَ، وَمَنْ شَاءَ أَرَاغَ)).^(٢٣)

وعن أنس بن مالك -رضي الله عنه- قال: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ: ((يَا مُقَلَّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ))، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَمَّا بِكَ وَبِمَا جِئْتَ بِهِ فَهَلْ تَخَافُ عَلَيْنَا؟ قَالَ: ((نَعَمْ، إِنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ يَقْلِبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ))^(٢٤)

٦- قصر الأمل والتفكر في حقارة الدنيا: قال تعالى: { اَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ } (الحديد، آية: ٢٠).

^(٢٢) رواه مسلم (٢٦٥٤)

^(٢٣) رواه الترمذي (٣٥٢٢) وحسنه لغيره الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (١٢٦ / ٥)

^(٢٤) رواه الترمذي (٢١٤٠) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٨٧١ / ٢)

نماذج لحسن الخاتمة:

عبد الله بن عباس

عَنْ مَيْمُونِ بْنِ مِهْرَانَ، قَالَ: شَهِدْتُ جِنَازَةَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بِالطَّائِفِ، فَلَمَّا وَضِعَ لِصَلِّيَ عَلَيْهِ، جَاءَ طَائِرٌ أَبْيَضٌ حَتَّى وَقَعَ عَلَى أَكْفَانِهِ، ثُمَّ دَخَلَ فِيهَا فَالْتَمَسَ فَلَمْ يُوْجَدْ فَلَمَّا سُويَ عَلَيْهِ سَمِعْنَا صَوْتًا، وَلَا نَرَى شَخْصَةً يَنْتَلُو [يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ، ارْجِعِي إِلَى رَبِّكَ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً، فَادْخُلِي فِي عِبَادِي، وَادْخُلِي جَنَّتِي]. (٢٥)

أبو زرعة الرازي

* قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ، وَرَأَى أَبِي زُرْعَةَ: حَضَرْنَا أَبَا زُرْعَةَ بِمَاشَهْرَانَ، وَهُوَ فِي السُّوقِ {يعني عند الموت}، وَعِنْدَهُ أَبُو حَاتِمٍ، وَابْنُ وَارَةَ، وَالْمُنْذِرُ بْنُ شَادَانَ، وَغَيْرُهُمْ، فَذَكَرُوا حَدِيثَ التَّائِبِينَ: (لَقِّنُوا مَوْتَاكُمْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) وَاسْتَحْيُوا مِنْ أَبِي زُرْعَةَ أَنْ يُلَقِّنُوهُ، فَقَالُوا: تَعَالَوْا نَذْكُرِ الْحَدِيثَ. فَقَالَ ابْنُ وَارَةَ: حَدَّثَنَا أَبُو عَاصِمٍ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الْحَمِيدِ بْنُ جَعْفَرٍ، عَنْ صَالِحٍ، وَجَعَلَ يَقُولُ: ابْنُ أَبِي، وَلَمْ يُجَاوِزْهُ. وَقَالَ أَبُو حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا بُنْدَارٌ، حَدَّثَنَا أَبُو عَاصِمٍ، عَنْ عَبْدِ الْحَمِيدِ بْنِ جَعْفَرٍ، عَنْ صَالِحٍ وَلَمْ يُجَاوِزْهُ، وَالْبَاقُونَ سَكَتُوا، فَقَالَ أَبُو زُرْعَةَ وَهُوَ فِي السُّوقِ: حَدَّثَنَا بُنْدَارٌ، حَدَّثَنَا أَبُو عَاصِمٍ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الْحَمِيدِ، عَنْ صَالِحِ بْنِ أَبِي عَرِيبٍ، عَنْ كَثِيرِ بْنِ مَرْثَةَ، عَنْ مُعَاذِ بْنِ

(٢٥) معرفة الصحابة لأبي نعيم (٣/ ١٧٠٣)

جبل، قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (مَنْ كَانَ آخِرُ كَلَامِهِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، دَخَلَ الْجَنَّةَ)، وتوفي -رحمه الله- . (٢٦)

آدم بن أبي إياس

* لما حضرت آدم بن أبي إياس الوفاة، ختم القرآن وهو مسجى، ثم قال: بحبي لك إلا رفقت بي، لهذا المصرع كنت أؤملك، لهذا اليوم كنت أرجوك، ثم قال: لا اله إلا الله، ثم قضى. (٢٧)

إبراهيم بن هانئ

* قال أبو بكر بن زياد: حضرت إبراهيم بن هانئ عند وفاته، فقال: أنا عطشان فجاءه ابنه بماء. فقال: أغابت الشمس؟ قال: لا. فردّه، وقال: {لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ}، ثم مات. (٢٨)

عامر بن عبد الله بن الزبير

* وسمع عامر بن عبد الله بن الزبير، المؤذن وهو يجود بنفسه، فقال: خذوا بيدي. فقيل: إنك عليل! قال: أسمع داعي الله، فلا أحييه. فأخذوا بيده، فدخل مع الإمام في المغرب، فركع ركعة، ثم مات. (٢٩)

مجاهد بن جبر

(٢٦) سير أعلام النبلاء (١٣ / ٧٦)

(٢٧) تاريخ بغداد (٧ / ٤٨٦)

(٢٨) سير أعلام النبلاء (١٣ / ١٨)

(٢٩) سير أعلام النبلاء (٥ / ٢٢٠)

* وهذا مجاهد بن جبر المكي، أحد أئمة التابعين والمفسرين كان من أخصاء أصحاب ابن عباس، وكان أعلم أهل زمانه بالتفسير، مات مجاهد وهو ساجد سنة مائة، وقد جاوز الثمانين. (٣٠)

علامات حسن الخاتمة:

إن الشارع الحكيم قد جعل علامات بينات يستدل بها على حسن الخاتمة كتبها الله تعالى لنا بفضلته ومنه - فأيا امرئ مات بإحداها كانت بشارة له ويا لها من بشارة. (٣١)

١ - نطق الميت بالشهادة عند الموت.

عن معاذ بن جبل -رضى الله عنه- قال: قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((مَنْ كَانَ آخِرُ كَلَامِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ)) (٣٢)

٢ - موت المؤمن بعرق الجبين.

عن بُرَيْدَةَ بن الحصيبي -رضى الله عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((المؤمن يموت بعرق الجبين)) (٣٣)

فكانه يُشَدَّد على المؤمن في حال وفاته، وهذه من رحمة رب العالمين سبحانه وتعالى. فيتصعب

المؤمن عرقاً من شدة كرب الموت، وهذا ليس عذاباً من الله عز وجل له، وإنما تكفير لخطايا قد

(٣٠) البداية والنهاية (٩/ ٢٥٠)

(٣١) أحكام الجنائز للألباني (ص: ٢١)

(٣٢) رواه أحمد (٥/ ٢٤٧) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢/ ١١٠٥)

(٣٣) رواه الترمذي (٩٨٢) وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (١/ ٥٠٥)

تكون على الإنسان لم يبلغ عمله أن يكفرها، أو رفع لدرجات لم يبلغ عمله أن يصل إليها.
ولذلك شدد على النبي -صلى الله عليه وسلم- في مرض وفاته، فكان أمر الموت عليه ثقيلًا،
وكان عليه الصلاة

والسلام يكره كرباً شديداً، فقالت فاطمة -رحمه الله- : وَآ كَرَبَ أَبَاهُ، فَقَالَ لَهَا: ((لَيْسَ عَلَى أَبِيكَ
كَرَبٌ بَعْدَ الْيَوْمِ)) يعني: هذا هو آخر كرب في هذه الدنيا، ولا كرب على أبيك -صلى الله عليه
وسلم- بعده.

٣ - الاستشهاد في سبيل الله.

قال تعالى { وَكَأَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزُقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ
بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ
يَحْزَنُونَ (١٧٠) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ } [آل عمران:
١٦٩ - ١٧١]

وعن المقدام بن معدني كَرَبَ -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: "
لِلشَّهِيدِ عِنْدَ اللَّهِ سِتُّ خِصَالٍ: يُغْفَرُ لَهُ فِي أَوَّلِ دَفْعَةٍ، وَيَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَيُجَارُ مِنْ عَذَابِ
الْقَبْرِ، وَيَأْمَنُ مِنَ الْفَزَعِ الْأَكْبَرِ، وَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ تَاجُ الْوَقَارِ، الْيَاقُوتَةُ مِنْهَا خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا
فِيهَا، وَيَزُوجُ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ زَوْجَةً مِنَ الْحُورِ الْعِينِ، وَيُشَفَّعُ فِي سَبْعِينَ مِنْ أَقْرَبِهِ ". (٣٤)

(٣٤) رواه الترمذي (١٦٦٣) وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (٢/ ١١٢٧)

قال الألباني -رحمه الله- : ترجى هذه الشهادة لمن سألها مخلصاً من قلبه ولو لم يتيسر له الاستشهاد في المعركة، والدليل حديث سهل بن حنيف -رضى الله عنه- ، أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((من سأل الله الشهادة بصدق، بلغه الله منازل الشهداء، وإن مات على فراشه)). (٣٥)

٤ - الموت مرابطاً في سبيل الله.

عن سلمان -رضى الله عنه- ، قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((رباط يومٍ وأيلة خير من صيام شهرٍ وقيامه، وإن مات جرى عليه عمله الذي كان يعملُهُ، وأجرى عليه رزقه، وأمن الفتان)) (٣٦)

وقوله -صلى الله عليه وسلم-: (وأمن الفتان) يعني: في قبره.

وعن فضالة بن عبيد -رضى الله عنه- ، عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((كلُّ ميِّتٍ يُختمُ على عمله إلا الذي مات مرابطاً في سبيلِ الله فإنه يُنمى له عمله إلى يومِ القيامة، ويأمن من فتنةِ القبر)) (٣٧)

أي: لا يبقى عمله على حاله، ولكن لا يزال ينمى له هذا العمل إلى يوم القيامة.

٥ - الموت دفاعاً عن دينه أو نفسه، أو ماله، أو أهله.

(٣٥) رواه مسلم (١٩٠٩). أحكام الجنائز (١/ ٣٦)

(٣٦) رواه مسلم (١٩١٣)

(٣٧) رواه الترمذي (١٦٢١) وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (٢/ ١١٢٤)

عَنْ سَعِيدِ بْنِ زَيْدٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَقُولُ: ((مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دِينِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دَمِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ أَهْلِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ))^(٣٨)

٦ - الموت ليلة الجمعة، أو يومها، وذلك يقية فتنة القبر.

فالموت ليلة الجمعة جعل الله عز وجل فيها مزية لصاحبه إذا كان مؤمناً، أما الفاجر والكافر فلا ينفعه شيء سواء مات في يوم الجمعة أو في أي يوم، ولكن هذا للمؤمن زيادة فضل من الله عز وجل.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: ((مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَمُوتُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ أَوْ لَيْلَةَ الْجُمُعَةِ إِلَّا وَقَاهُ اللَّهُ فِتْنَةَ الْقَبْرِ))^(٣٩)

٧- أن يموت صابراً محتسباً بسبب أحد الأمراض الوبائية، وقد نبه النبي -صلى الله عليه

وسلم- إلى بعضها فمنها:

أ - الطاعون: عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- ، عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: ((الطَّاعُونُ شَهَادَةٌ لِكُلِّ مُسْلِمٍ))^(٤٠)

ب- السُّلُّ: عن عبادة بن الصامت أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال ((السل شهادة))^(٤١)

^(٣٨) رواه الترمذي (١٤٢١) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢/ ١١٠٠)

^(٣٩) رواه الترمذي (١٠٧٤) وحسنه الألباني في مشكاة المصابيح (١/ ٤٣٢)

^(٤٠) رواه البخاري (٢٨٣٠) ومسلم (١٩١٦)

^(٤١) رواه أبو الشيخ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١/ ٦٨٧)

ج - داء البطن: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: "

الشُّهَدَاءُ خَمْسَةٌ: الْمَطْعُونُ، وَالْمَبْطُونُ، وَالْغَرِقُ، وَصَاحِبُ الْهَدْمِ، وَالشَّهِيدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ". (٤٢)

د- ذات الجنب: عن جَابِرِ بْنِ عَتِيكَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -

قال ((مَا تَعْدُونَ الشَّهَادَةَ؟)) قَالُوا: قَتْلٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ((

الشَّهَادَةُ سَبْعٌ سِوَى الْقَتْلِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ: الْمَطْعُونُ شَهِيدٌ، وَالْغَرِقُ شَهِيدٌ، وَصَاحِبُ ذَاتِ الْجَنْبِ شَهِيدٌ،

وَالْمَبْطُونُ شَهِيدٌ، وَصَاحِبُ الْحَرِيقِ شَهِيدٌ،

وَالَّذِي يَمُوتُ تَحْتَ الْهَدْمِ شَهِيدٌ، وَالْمَرْأَةُ تَمُوتُ بِجَمْعٍ شَهِيدَةٌ)). (٤٣)

المطعون: الميت بالطاعون. والغرق -بفتح الغين وكسر الراء-: الذي يموت غريقاً في الماء.

وذات الجنب: هو التهاب في الغشاء المحيط بالرئة. والمبطون: هو الذي يموت بمرض بطنه كالإسهال

والاستسقاء ونحوهما. وقوله: "المرأة تموت بجمع" بضم الجيم وسكون الميم: الميتة في النفاس وولدها في

بطنها لم تلده وقد تمَّ خلقه، وقيل: هي التي تموت من الولادة سواء أُلقت ولدها أم لا.

٨ - موت المرأة في نفاسها بسبب الولادة ونحو ذلك. ويدلُّ عليه الحديث المتقدم

٩- الموت بالغرق والحرق والهدم: للحديث المتقدم أيضاً

١٠- أن يختم للإنسان بعمل صالح:

(٤٢) رواه البخاري (٢٨٢٩) ومسلم (١٩١٤)

(٤٣) رواه أحمد (٥ / ٤٤٦) وصححه الألباني في صحيح الجامع (١ / ٦٩٥)

عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- قَالَ: أَسْنَدَتُ النَّبِيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- إِلَى صَدْرِي فَقَالَ: ((مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ - قَالَ حَسَنًا: ابْتِغَاءً وَجْهَ اللَّهِ - خُتِمَ لَهُ بِهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ صَامَ يَوْمًا ابْتِغَاءً وَجْهَ اللَّهِ خُتِمَ لَهُ بِهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ ابْتِغَاءً وَجْهَ اللَّهِ خُتِمَ لَهُ بِهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ)). (٤٤)

وَعَنْ أَنَسٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: ((إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا اسْتَعْمَلَهُ)) فَقِيلَ: كَيْفَ يَسْتَعْمَلُهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: ((يُوفِّقُهُ لِعَمَلٍ صَالِحٍ قَبْلَ الْمَوْتِ)) (٤٥) وقال في المحرم الذي وقصته ناقته ((اغسلوه بماءٍ وسِدْرٍ، وكَفِّنُوهُ فِي ثَوْبَيْنِ، وَلَا تُحَنِّطُوهُ، وَلَا تُخَمِّرُوا رَأْسَهُ، فَإِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُلَبِّيًّا)) (٤٦)

قال ابن القيم: والمقصود أن من كان مشغولاً بالله وبذكره ومحبته في حال حياته، وجد ذلك أحوج ما هو إليه عند خروج روحه إلى الله، ومن كان مشغولاً بغيره في حال حياته وصحته فيعسر عليه اشتغاله بالله وحضوره معه عند الموت ما لم تدركه عناية من ربه، ولأجل هذا كان جديراً بالعاقل أن يلزم قلبه ولسانه ذكر الله حيثما كان لأجل تلك اللحظة التي إن فاتت شقي شقاوة الأبد. (٤٧)

١١- ثناء أهل الخير و الصلاح على الميت:

(٤٤) رواه أحمد (٣٩١ /٥) وصححه الألباني في أحكام الجنائز (٤٣ /١)

(٤٥) رواه الترمذي (٢١٤٢) وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (١٤٥٤ /٣)

(٤٦) رواه البخاري (١٢٦٦) ومسلم (١٢٠٦) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما

(٤٧) طريق الهجرتين (ص: ٣٠٨)

عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: مَرَّ بِجَنَازَةٍ فَأُتِيَتْ عَلَيْهَا خَيْرًا، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((وَجِبَتْ))، فَقَالَ عُمَرُ: فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي، مَرَّ بِجَنَازَةٍ فَأُتِيَتْ عَلَيْهَا خَيْرًا، فَقُلْتُ: وَجِبَتْ، وَمَرَّ بِجَنَازَةٍ فَأُتِيَتْ عَلَيْهَا شَرًّا، فَقُلْتُ: وَجِبَتْ، فَقَالَ: ((مَنْ أَتَيْتُمْ عَلَيْهِ خَيْرًا وَجِبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ، وَمَنْ أَتَيْتُمْ عَلَيْهِ شَرًّا وَجِبَتْ لَهُ النَّارُ، أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ)) (٤٨)

فهذه بعض علامات حسن الخاتمة وليس المعنى: أننا نشهد لصاحبها بأنه في الجنة؛ لأنه لا يجوز أن نشهد لإنسان بعينه بأنه في الجنة أو في النار، فهذا من علم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى، ولكن غاية ما نقول: نحسبه على خير، ونحسب أنه من حسن خاتمته أن فعل الله به كذا وكذا. فيبقى رجاء الخير وحسن الظن في صنع الله عز وجل بعبد.

والحمد لله رب العالمين

(٤٨) رواه النسائي (١٩٣٢)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٠٣٢ / ٢)